

الرؤية التأملية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ

نعيم عموري*

الملخص

الرؤية التأملية في الروايات الفلسفية من أهم الدراسات في الرؤية الإنسانية التأملية لوظيفة الأدب الهادف، فالبحث عن الحقيقة من أهم البحوث في نظريات الأدب الفلسفي، رواية الشحاذ الفلسفية والتي هي تعبير مُكَمَّل للبعد الفلسفي والنفسي والصوفي الإنساني، من روايات محفوظ القائمة على بطل واحد، وهي تعبير صادق عن بحث الإنسان عن الحقيقة وعن الذات وعن الله (تبارك وتعالى) محفوظ حاول من خلال شخصية بطل الرواية «عمر الحمزاوي» أن يُبيِّن للجنس البشري أجمع تعاسة الإنسان وحيروته في عالمه هذا، وإنَّ الإنسان بحاجة ماسة إلى كشف ذاته، فهو في الواقع شحاذ يشحذ ذاته وحقيقته ويتسول ويطلب بَعده الإلهي، هذه الرواية تجمع الآراء النفسية والفلسفية والصوفية حيث تدعو الإنسان إلى مراجعة حساباته في ذاته وفي نفسه وقراءة متطلبات الحياة وقد توصل البحث إلى أنَّ هذه الرواية الفلسفية تدعو الإنسان إلى التأمل في حياته ومماته، تدعوه للشك وللشكوى من الوضع الموجود وهي تُبيِّن الواقع المرّ المكون إليه فهي مزاج من الفلسفة والعرفان، تدعو إلى الاعتزال لكن اعتزال مع تأمل في مسار الحياة. وهدف البحث دراسة رواية الشحاذ من منطلق الرؤية الوجودية، والمنهج المتبع وصفي - تحليلي.

الكلمات الرئيسية: الرؤية التأملية، الرواية العربية، نجيب محفوظ، الشحاذ.

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران اهواز، n.amouri@scu.ac.ir

تاريخ الوصول: ١٣٩٧/٢/١٠، تاريخ القبول: ١٣٩٧/٤/٣

١. المقدمة

في منظور الثقافة الإسلامية دعى القرآن الكريم الناس إلى التفكير والتأمل في ذاتهم وفي حقيقة وجودهم ومن أين أتوا وإلى أين يذهبون ودعاهم إلى التفكير حيث قال تبارك وتعالى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» (الروم: ٨).

«إنَّ إشكالية الذات هي إحدى جوانب السؤال المتعلق بجوهر الإنسان. لكنها، من حيث المبدأ تعالج الكثير من المسائل وتقصد بذلك خاصية النوع الإنساني واختلافه عن الحيوان وكذلك التجانس الانطولوجي (Ontology = علم الوجود والطبيعة) للفرد (أي أنه سيقى كما هو في الظروف المتبدلة إلى آخر حياته) وكذلك ظاهرة وعي الذات وعلاقته بالوعي والفعالية أو في نهاية الأمر بحدود النشاط الفردي (ماذا يستطيع الفرد أن يقوم به وبماذا يرتبط ذلك إنَّ ذلك يحفز ويتعزز بقانونية الاختيار) ورغم أن كل هذه الأسئلة مرتبطة فيما بينها، إلا أنَّ تناسبها وأهميتها ليسا متشابهين في مختلف النظريات الفلسفية» (كون، ١٩٩٢: ١٣) فظاهرة البحث عن الذات في الواقع ظاهرة فلسفية دخلت في الدراسات الأدبية وخاصة الروايات الفلسفية من حيث دراسة الشخصيات وما ترنو تلك الشخصيات إلى ذاتها وكنه حقيقتها، فالحضارة الإسلامية العريقة المتمثلة بالشوب الإسلامية تطرقت إلى قضية «الذات» في أدبها في شعرها وفي نثرها، «كل معالجة حلولية {أي لا تفصل المعنى عن المبنى} جدلية في جوهرها، فهي تطبق المبدأ الذي ينكر كذب الأيديولوجيا في ذاتها، قائلاً إنَّ الكذب مقصور على إدعائها الاتفاق مع الواقع. والنقد الحلولي للظواهر الفكرية والفنية نقد يسعى - من خلال تحليل الشكل والمضمون معا - إلى إدراك التناقض بين الحقيقة الموضوعية لهذه الظواهر وبين الادعاء الأيديولوجي المشار إليه» (وولين، ٢٠٠٦: ١١) فالبحث عن الذات أو كشف الحقيقة من قضايا التراث الإسلامي والتي دخلت عالم الأدب من خلال الرؤية الفلسفية، الروايات العربية اتجهت إلى اتجاهات عدّة، فانقسمت بين الروايات الاجتماعية والذاتية ونعني بالذاتية الفلسفية منها حيث يُطرح فيها آراء ونظريات تخص الفرد دون المجتمع لكن قلما نجد رواية تنغمس في ذاتها دون المجتمع وإن كانت صبغتها ذاتية كالروايات الفلسفية

التي تعني بتجربة الفرد دون المجتمع لكن لا يمكن التمييز بين ذاتيتها و فرديتها ومنها رواية الشحاذ الفلسفية لنجيب محفوظ، هذه الرواية تبحث عن الحيرة الصريحة أمام معنى الوجود في أزمة بطلها عمر الحمزاوي، فهذا البطل هو كلّ إنسان حُرّ يتأمل بمعنى الوجود الإنساني، هي رواية من ضمن روايات محفوظ الفلسفية أو الواقعية الجديدة حيث مزجت بين الواقع والرمز وهدف البحث دراسة رواية الشحاذ من منطلق الرؤية الوجودية، هذه الرؤية التي تتحدث عن أسئلة البشر الوجودية وانه لماذا خُلق؟ وإلي أين يذهب؟ هذه الرواية تمثل البحث الحقيقي للإنسان عن الحقيقة. وسؤالها الرئيس عن الذات وعن الحقيقة، ذات الإنسان وحقيقة حياته ومماته ولم يغفل محفوظ من استخدامها اجتماعيا وسياسيا، هذه المقالة على المنهج التوصيفي التحليلي طارحةً الأسئلة التالية:

١.١ أسئلة البحث

- ما هي آليات البحث عن الذات في رواية الشحاذ؟
- ما هو المنحى الذي اتّجه إليه محفوظ في روايته الشحاذ؟

٢.١ فرضيات البحث

آليات البحث عن الذات في هذه الرواية هي المونولوج الداخلي حيث يتغمص الكاتب شخصية البطل «عمر الحمزاوي» ويتجه نحو صوفية تبحث عن إشراق إلهي بل تشحذ الأنوار الإلهية.

٣.١ أهمية وضرورة البحث

تكمن في دراسة التراث الفكري والعقدي العتيق عند البشر وجاءنا هذا التراث في إطار رواية فلسفية، حيث تتشابك فيها الأسئلة، حول الحياة والممات، حول الركون والحركة وأما المنحى الذي اتّجه إليه محفوظ فهو منحى وجودي اجتماعي حيث شارك الجميع بوحدة

البطل وشارك البطل بمحنة الجميع أي مزج محفوظ بين عزلة الحمزاوي وبين ما يحيط به من ناسه وأهله.

٤.١ خلفية البحث

هناك دراسات حول رواية الشحاذ لكن هذه الدراسات لم تتطرق إلى موضوع جدلية البحث عن الذات في رواية الشحاذ، إنما دراسات حول الشخصيات كدراسة «شخصيت پردازی در رمان الشحاذ نجيب محفوظ» للكاتب علي حضري ورسول بلاوي وزهره بهروزي كتبت هذه المقالة عام (١٣٨٤ش) في مجلة لسان مبین العدد الثاني والعشرين وكما يبدو من عنوان المقالة أنها درست عنصر الشخصية فيها ركزت المقالة على دراسة الشخصيات و على المنهج الواقعي للشخصيات كما درست أسلوب الكاتب وحواره في الرواية. وأيضاً مقالة «تحليل روايي رمان الشحاذ (گدا) اثر نجيب محفوظ» للكاتبين كمال باعجري وعلي بشيري في مجلة اللغة العربية وآدابها جامعة فردوسي مشهد وفي عددها الثاني عشر عام (١٣٩٤ش) تطرق الكاتبان إلى عناصر الرواية ولم يدرسوا مضمونها دراسة معمقة وإنما قاما بتحليل العناصر الروائية. فهذه المقالة تطرقت إلى السرد وأنواعه في الرواية، ثم درست الحوار و الوصف ولم تتطرق إلى جدلية البحث عن الذات وإنما دراسة في السرد. ومقالة «الشحاذ رواية واقعية نقدية: المكوّنات الإنشائية ودلالاتها» كتبها الدكتور محمد الباردي في عام (٢٠١١) في موقع (<http://www.wata.cc>) ثم كتاب الرمزية في أدب نجيب محفوظ لفاطمة الزهراء محمد سعيد (١٩٨١م) حيث درست الرمزية في أعمال محفوظ ولم تتطرق إلى قضية البحث عن الذات، في هذه المقالة تطرقت الكاتب إلى شرح مضمون الرواية و بدأها بالسير التاريخي للرواية المصرية وأهم الروائيين المصريين. هذه المقالات لم تدرس جدلية البحث عن الذات وإنما درست الشخصيات أو السرد الروائي فيها. لذا هذه المقالة تتميز بالجدّة في هذا الموضوع.

٢. قراءة في رواية الشحاذ

اجتماعياً وسياسياً رواية الشحاذ كتبت عام (١٩٦٥م) أي: في مرحلة الهدوء والاستقرار

اجتماعيا وسياسيا لأن المصريين أسقطوا الملك فاروق عام (١٩٥٢م) فلذا في هذه السنين اتجهت روايات محفوظ نحو الاتجاه الفلسفي وكتب سبع روايات في الموضوع الفلسفي ومنها رواية الشحاذ وبطل هذه الرواية هو المحامي اللامع «عمر الحمزاوي» وكان أيام شبابه مع بعض زملائه في الجامعة من الثوريين وإنهم «عمر الحمزاوي، وعثمان خليل، ومصطفى المنيأوي» في الثورة هذا الأخير خان بمبادئ الثورة وانقلب على صاحبيه أما خليل عثمان فُقبض عليه و سجن لعقدين من الزمن وعمر الحمزاوي فرّ من الحكومة ولكن هو أيضا خان بمبادئ الثورة ونفسيته معدّبة لأنه مع شهرته في المحاماة لم يقيم لنجدة عثمان خليل؛ فمع مرور الأيام مات في عمر الحمزاوي ذلك المناضل ومات معه الشعر والحب وحلت محله حياة مترفة ناجحة مترهلة، أصبح عثمان خليل الضمير المعذب لعمر الحمزاوي وهذا ينتظر المعجزة من غيره لا من نفسه ويبحث عن النشوة في كل مكان إلا في ذاته، ولا يجدها في ذاته لأنها فارغة منها، فمرض عمر الحمزاوي ولم يكتشف الأطباء مرضه و بدأت رحلة التسول؛ تسول النشوة في الملاهي وفي أحضان الفتيات وفي الخمر وغيرها لكنه في النهاية هاجر نحو الصحراء وهجر البشر بأجمعهم، هجر زوجته و أولاده و عمله و انعزل عن الناس وعن نفسه يشحذ حقيقة ضائعة يبحث عن ضالته ويستمر في العزلة وينقلب السرد عند محفوظ إلى منولوج داخلي وتتسايير الأحداث من لحظة هروب عثمان خليل من السجن إلى صحوة بطل الرواية ونقله إلى المستشفى رمزا للعلاج. فالتعارض الفكري الذي عاشه عمر الحمزاوي يأتي من عدم نجدته لصديقه خليل عثمان الذي رُجّح في السجن لمدة عشرين سنة و لو أنّ الحمزاوي ومصطفى المنيأوي كان قد قبض عليهما لكانت مدة سجن صديقيهما أقل من عشرين سنة. ولقد حاول الحمزاوي أن يتصوف بعد أن فشل الجنس والفن في جلب السلوان إلى نفسه فضلا عن الوفاق الداخلي، وراح يضرب في الظلام ويلحظ ولادة الفجر بشوق ويرى بعجب التحام الفكر كرابطة بين السماء والأرض ولكن هذا كله لم يضمن له السلام الداخلي، بل لعله كان لحن الختام لرحلة فشله المستمر، فهذا «التصوف الفكري لا يناسب ختام رحلة الحمزاوي ولو أنه صمم على التصوف وأحسن الاختيار فلقد كان أمامه التصوف الاجتماعي، ودججه بالحركة البشرية كلها عبر المواطن والعصور، وأما ترقّب لحظة الميلاد لنفسه

الميتة خلال التطلع إلى الفجر وانتظاره فهو علاج لا يناسب حالة الحمزاوي الذي مرض بالترف، فكيف يهرب إلى الترف الفكري وهو مرضه الأصيل؟ فلم يكن عجيباً أن ينتهي إلى حالة من الانفصال الكامل عن كل ما حوله، مناقضاً بذلك بدايته القديمة في الفن والسياسة، بل مناقضاً المفهوم الأعمق للتصوف ذاته» (عبدالله، ٢٠٠١: ٢٦٢) وتنتهي هذه الرواية بالقبض على عثمان خليل الهارب من السجن و صحوة عمر الحمزاوي من حالته المزرية وعودته للحياة الطبيعية.

٣. دراسة الذات في رواية الشحاذ

١.٣ مرحلة ما قبل البحث عن الذات (المرحلة التمهيديّة)

الذات أو الحقيقة الإلهية أو الإنسانية كانت منذ قرون سحيفة محطّ تأمل للبشر، فكان الإنسان يتأمل خالقه ونفسه وكونه وكيانه وحياته وموته؛ يتأمل ما يدور حوله ولذلك نشأ في الأدب الاتجاه الصوفي أو العرفاني يتأمل ذات الإنسان ونهايته كما يتأمل إله الكون وخالقه. رواية الشحاذ الفلسفية تعجّ من بدايتها حتى نهايتها بالتأمل في ذات الإنسان وحقيقتها الضائعة ولقد مزجت الرواية بين الاتجاه الصوفي والفلسفي وتبدأ الرواية بوصف لوحة معلقة في عيادة الطبيب والرواية مُلئت بالرموز والإشارات نلاحظ السحاب الناصعة البياض التي تسبح في محيط أزرق والخضرة التي تُغطي سطح الأرض في إستواء وامتداد ترمز إلى النظرة التقليدية إلى هذه العناصر والتي تُعدّها رموزاً للصفاء والنقاء الطبيعي رغم أنّها في نظر البطل لا تتعدى الإحساس بالاستواء والامتداد الذي سيظل يلاحقه طوال أحداث الرواية محاولاً الهروب منه لتحقيق النشوة التي ينشدها بعيداً عن استواء الحياة الروتينية. ومن أبرز سمات هذه الرواية هي تلك اللوحة المرسومة من الطبيعة المعلقة بمكتب عيادة الطبيب الذي ذهب إليه بطل الرواية وقد مزج محفوظ بين تلك اللوحة وبين الصحراء التي فرّ إليها الحمزاوي وإنّ من أبرز مقومات الرواية وأسرار نضجها الفني حقاً «ذلك الدور المهم الذي تقوى به الطبيعة في أجزاء الرواية كلها ففي كلّ لحظة نحسها تلعب دورها المميز والهائم، نجدها في أغلب أحيائها صورة ثائرة غير مستقرة تمثل القتامة والغموض منسجمة مع اللحظة التي يعيشها البطل»

(الشطي، ١٩٧٦: ٢٧٠) هذا وأكثر محفوظ من ذكر شجرة السرو وإثما تدل على رمز الخلود: «إن هذه الشجرة كغيرها من الأشجار ترمز إلى الخلود أي: الحياة ما بعد الموت ولذلك كثيراً ما وجدت هذه الشجرة عند قبور الشعوب المختلفة كالإغريق والطيان وشعوب الشرق الأوسط والهند والصين وكذلك عند شعوب أوروبا المسيحية. وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشؤون الخاصة بدفن الموتى والتي كان من شأنها حفظ الجسد ما بعد الموت» (هال، ١٣٨٣: ٢٩٣) عنوان الرواية الشحاذ قد يكون لهذا الاختيار عند نجيب محفوظ عدة دلالات منها محاولة السخرية من لونٍ شاع في ذلك الوقت من رجال الدين إذ أصبحوا يستغلون وظيفتهم الدينية السامية في التكسب، وأتى به في صورة تسول ليحمله مهيناً، لأنه يرى تناقضاً بين الفكر وطريقة استخدامه ومنها أنه يريد أن يعي على النظام وضعهم للنموذج في هذه الصورة ومنها أنه يريد أن يضعه في هذه الصورة ليبين عدم فاعليته، فالشحاذ لو قال كلاماً لم يقله أحد في عظمته فلن يلتفت إليه أحد، لأن كل من يسمعه يتصور أنه سؤال وطلب للإحسان (سلامة، ٢٠٠٩: ١٤٥) ومنها أيضاً أنه أراد أن يبين عنوان الشحاذ بمعناه الحقيقي والتي تشير إليه الآية الشريفة «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَنْخَلُ وَمَنْ يَنْخَلُ فَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» (محمد: ٣٨).

جدلية البحث تدخل في خضم الثقافات المتعددة من ثقافة إسلامية إلى ثقافات الأديان الأخرى، لأن البحث فيه جدل لكل ما يُبحث عنه؛ وقد أثبتت التجارب التاريخية لمختلف الحضارات أن التفاعل الثقافي عامل أساسي من عوامل نموها وازدهارها وذلك بفضل ما يحدثه من إثراء وإخصاب لها وتنوع في روافدها وتنشيط وشحذ لقدراتها وإبراز لطاقاتها الكامنة وان المثاقفة تظل بمثابة السماد للتربة يقيها الجذب ويكسبها القدرة على مزيد الإنتاج والعطاء فهي اللقاح الكفيل بابتكار مبادئ وقيم مستحدثة وإنجاب تصورات وخيارات جديدة اقدر على السمو بالوضع البشري وأنجع في تحقيق رقيه وفتح الآفاق العريضة أمام مستقبله (بدوي، ١٩٨٠: ٥٧) فلو لاحظنا حوارات عمر الحمزاوي لوجدنا أنها تتجه نحو الفلسفة الوجودية والبحث عن الحقيقة المطلقة، هذه الحقيقة التي تعبر عن الموقف المضاد الذي يراه محفوظ أجدر بأن يتبع بدلا من ذلك الهيام في المطلق الذي لجأ

إليه الناس؛ إنّه يسجل واقعا أصبح يفرض نفسه في ذلك الوقت، والهروب من هذا العالم إلى خلوة روحية وصوفية، والواقع أنّ الأمر يتضح من حديثه مع وردة حين تحاول أن تشده مرة أخرى إلى دنيا الواقع، ويرد عليها حينما تسأله عما ينوي فعله فيرد عليها بتصميم «أن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله في حياتي وهو ألا أفعل شيئاً» (محفوظ، ١٩٦٦: ١٧٦) في رواية الشحاذ «تتطور التجارب وتتنوع مختلفاً في المضامين متنوعاً في الشخصيات (الطبيب/ الزوجة/ وردة/ مارجريت...) متحوّلة في الأمكنة والأزمنة (العيادة/ البيت/ المقهى...) وهو ما يعني أنّ بنية الأحداث بنية محكمة بالانفتاح والتطور وفق منطق قصصي قوامه ثنائية وهم الانفراج وواقع التأزم أحياناً والمساعد والمعرقل شخصيات والانغلاق أطراً غير أنها في وجهها الذهني تبدو منغلقة على ذات الثنائية لا تتغير ثنائية التأزم والانفراج» (حيوي، د.ت: ٤) قوله أنّ الأوان... وصل إلى مرحلة من المراحل الحياة الاعتيادية أن يتوقف عن الحياة ويبحث عن حياة أخرى، هذه الوقفة تحتاج إلى تأني وتأمّل في الكون ليبحث الإنسان عن ذاته.

٢.٣ مرحلة البحث عن الذات

هذه المرحلة هي مرحلة الحضارة الإنسانية والتي عرفها ستراوس بـ«العادات والمعتقدات والمؤسّسات مثل: الفنّ والقانون، والدّين، وتقنيّات الحياة الماديّة. وبأختصار هي كلّ العادات والمهارات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع» (ستراوس وفوكو، ١٩٩٢: ٨٣) فمرحلة البحث عن الذات في الرواية بدأت عند عمر الحمزاوي في حالة العزلة التي اختارها على كلّ شيء حتى على أسرته وحبّيته، فكما نلاحظ أنّ الرواية متأزمة من بدايتها إلى نهايتها وأنها تبحث عن معنى يبحث عنه البشر بأكمله ألا وهو معنى الوجود، فنلاحظ العزلة التي اجتاحت عمر الحمزاوي في بداية الرواية:

يا إلهي إنهما شيء واحد. زينب والعمل والداء الذي زهدني في العمل هو الذي زهدني في زينب. وهي القوة الكامنة وراء العمل هي رمزه. هي المال والنجاح والثراء وأخيراً المرض. ولأني أتقرّز من كل أولئك فأنا أتقرّز من نفسي. أو لأني أتقرّز من نفسي فأنا أتقرّز من كل أولئك (محفوظ، ١٩٦٦: ٤٧).

هذه بداية العزلة والتفكير العميق بحقيقة ذاته وكيانه ييلاحظ الحمزاوي أن كل ما حوله تكرر ولا شئ جديد وكأنه يبحث عن شيء فَقَدَهُ منذ القدم، نعم إنه يبحث وراء الحقيقة الضائعة لمعنى الوجود ولكن قلقه كان أخطر من القلق الذي قال عنه الطبيب والذي يعد ظاهرة طبيعية لأنه صدر عن معاناة البحث عن نفسه الضائعة إذ أفاق فجأة بعد عشرين عاماً، ليكتشف أن كل ما حققه لم يستطع أن يعوضه عن فقد ذاته الحقيقية، تلك الذات التي فقد يوم تحلى عن عقيدته لقد ترك ذاته ولهث للحصول على أفضل مظاهر الحياة. ثم قضية التعمق في البحث عن الذات تطرق إليها محفوظ في شتى أرجاء الرواية فمثلاً في حوار بين رجل و امرأة يُبين التضحية مع الاستهانة بجسامة النتائج المترتبة كما تمسك الحمزاوي ببحثه عن الذات:

«عزيزتي نحن منحدرون إلى خطر مؤكد. فقالت المرأة:

- هذا يعني أنك لا تحبني.
- إذا تكلمت بعقل فهذا يعني أنك لم تعد تحبني.
- ألا ترين انني مسؤول وأني جاوزت الشباب؟
- قل إنك لم تعد تحبني
- سوف نهلك معا ونحرب بيتنا
- ألا تكف عن المواعظ
- لك زوجك وبناتك ولي زوجتي وأبنائي.
- أ لم أقل لم تعد تحبني؟
- ولكنني أحبك!
- إذن فلا تذكرني بغير الحب» (محموظ، ١٩٦٦: ٢٦).

وأثناء هذا الضجر، وفي كل لحظات رفض الواقع المسيطرة على الحمزاوي، كانت تبرز دائماً في مخيلته ذكرى عثمان خليل الذي يتمثل دائماً في ذهنه نائراً قويا يضرب أروع الأمثلة على القوة والجلد. بينما انطلق هو في طريق السعادة الحاملة والثراء المتختم. و من ثم انغمس في عزلة قاتلة يبحث عن الحقيقة وقد قال:

«سأدق الجدار الأصم في كل موضع حتى يرن صوت أجوف يشي بالكتر المدفون»
(المصدر نفسه: ٧٣).

وهو في معاناة البحث عن حقيقة الحياة كان هذا ذا دلالتين الأولى هي الرغبة في إيجاد عقيدة جديدة راسخة عليها تملأ فراغ النفس والدلالة الثانية هي الثأر من سنوات الراحة، وطمأنية النفس والانطلاق نحو الثراء. وهو يعلم أنّ ذلك شيء اغتصبه على حساب سجن الثوري عثمان خليل، في هذه الرواية نجد أثر الطبيعة الصامة له دور بارز في بحث بطل الرواية عن ذاته فاستخدم «الجدار الأصم» وتعمّد الإتيان بالأصم دلالة على الغوص في حقائق الأشياء الظاهرة لبحث ما غاب عنه لأنّ «الصور الموجودة في هذا العالم كصور المرايا والتخييلات، تتجد وتبطل، بين حين وآخر، يعتقد السهروردي بتحقيق بعث الأجسام والأشباح الربانية في هذا العالم» (شفيعي وآخرون، ١٤٣٤: ٤١، نقلاً عن السهروردي، ١٣٧٥: ٣٣٨-٣٣٩) ويبرز محفوظ القلق الذي يجتاح فكر عمر الحمزاوي وتفرد عالمه الفكري من خلال الحوار مع الآخرين فهو يسأل «يازيك» صاحب المقهى الذي تعرف فيه على «وردة» يسأله عن معنى الحياة فيجيبه:

- «الحياة هي الحياة.
- أ أنت سعيد؟
- الحمد لله، أحياناً يصاب الموسم بالركود، أو يصيب الملهى غرام مفاجئ كغرام وردة ولكن الغافلة تسير ... فيسأله:
- لكنك تعيش حياتك ثم يأخذها الله؟
- هذا مفهوم طبعاً، ولكن بيتي جميل، والمدام عالٍ، ولي ابن وحيد يتعلم الكيمياء في سويسرا وسيعيش هناك ... فسأله و هو يتسم:
- هل تؤمن بالله؟ فأجاب الرجل بدهشة
- طبعاً، يا له من تحقيق طريف!
- إذن فقل لي ما هو الله؟ ضحك الرجل عالياً» (محموظ، ١٩٦٦: ٨٥).

ثم يخوض في معنى الحياة وفلسفتها ثم يُعرِّج على الموت وانه مبيد اللذات نشعر بسكون قاتل عند الحمزاوي يتوقف عند معنى الموت ويسأل عنه وانه يبحث عن معنى وجوده وذاته التي ستدمح مع مجيء الموت، تهادى الحمزاوي بـ«ظاهرة العبث» وانها تشير إلى أنه قد بدأ رحلة جادة خطيرة في عالم النفس، يبعد فيها تدريجياً عن منطق المجتمع العادي الذي لا ينفك يهدف إلى عقد مصالحة بين قيم في الخارج قد تتناقض تناقضا شديدا مع بعض قيم النفس، ويبحث عن نوع خاص من المنطق الذي يهدف إلى احداث التوازن الضروري بين عالمي الإنسان الداخلي والخارجي، وذلك مهما كان في هذا المنطق من مخالفة لمواصفات المنطق الاجتماعي.

في الواقع إننا نجد في عالم محفوظ ذلك التداخل بين الواقعي والأسطوري والخيالي والرمزي وهذا ما يبدو منعكسا على طابع الشخصية في هذه الرواية، فعمر الحمزاوي شخصية لا تشعر بالانتماء أو يجدوى الحياة رغم عمله بالمحاماة وتكوينه للأسرة وانه لا يجد هدفا لحياته، وهو في حالة قلق واضطراب وهذه الشخصية القلقة تعاني دائما من عدم التلاؤم بين ما تريده وما يريد الواقع الخارجي، فيبدأ متمرداً ثورياً يحلم بعالم مثالي حيث العدل والحرية، وفجأة يحدث التحوّل في نفسه ليجد أنّ كل ما بناه وامتلكه من شهرة وثراء إنما هو سعي خاسر لأنّ الموت سيسطوي عليه، فيهجر حياة الترف والنجاح والاطمئنان إلى الرهبانية والهروب والقلق منتقما من نفسه سواء في عمله حيث يهمل قضايا الناس وذهب إلى تحطيم نفسه وهدمها (محمد سعيد، ١٩٨١: ١٩٧). إنّ الحمزاوي بدأ رحلة البحث عن نشوة اليقين في مباحج الجنس ولذائده التي ارتوى منها بكافة الأساليب والمتع ثم آلت دورتها إلى انتهاء، وكما أنّ الصحراء في أحد أطراف الهرم كانت ملجأه، فإنّه استأنف هذه الرحلة في مباحج التصوف عندما انطلق ذات فجر، وحده، إلى الطريق الصحراوي. كان الطريق أمام الحمزاوي ولم يره وكان متمثلا في شخص عثمان خليل الذي يمثل العقل الخالص ولكنه تهادى في البحث عن ذاته وترك الغير بحثاً عن معنى الوجود. كما نلاحظ في نص الرواية:

وَلتُفَلِّ إنَّ الإنسان لم يُخلَق ليكتظ بالأطعمة. وتحرر المعدة تتحرر الروح كذلك و تُخلَق

(محفوظ، ١٩٩١: ٣٢٥).

فهو في هذه الحال تحرر من الغير وانحدر في ظلمات العزلة يُفكر عن ذاته وعن حقيقة وجوده، يُفكر في حلقة الإنسان ومسيره:

«وعيناك ترمقان الأرض بعد عمي ربع قرن. هكذا شهد الشاطيء مولد آدم وحواء ولكن لا يدري أحد من سيخرج من الجنة» (المصدر نفسه: ٢١).

الحمزاوي يعيش في لحظات حرجة يُفكر بها عن أصل الوجود واكتشف طريقا جديدا للبحث عن الحقيقة، والهروب من الواقع، وإيقاع العقاب على النفس وخاصة أنه قرر أن يترك كل هذه المظاهر إلى كوخ صغير يستجدي فيه اللحظة الفاتنة تلك التي عاشها في الصحراء، واستغرق في سباحات التصوف وبنى لنفسه عالما تسوده خيالات يحكمها منطق غير منطق الواقع إلا أنّ تعلقه بالواقع لم يفارقه فهو دائما يرى أفراد أسرته وأصدقاءه. ولهذا كان يتساءل عقب معاشته للحظة الوجد الصوفي:

«ماذا يعني هذا الحلم إلا أنني لم أبرا بعد من نداء الحياة؟ ... وكيف أفكر فيك طيلة يقظتي ثم تعبت بمنامي الأهواء؟» (محفوظ، ١٩٦٦: ١٤٦).

لقد كان تصوف الحمزاوي نوعاً من إلغاء العقل، إذ تبين من تجربته الصوفية، إنها تجربة سيطرت عليها خيالات لا ينتظمها منطق وبهذا كانت نوعاً من الغيوبة الفكرية، لا الصحوة التأملية التي تحدث تغييراً جوهرياً في تركيب الشخصية (محمد سعيد، ١٩٨١: ٢٠١). «بطل الرواية بعد متاهات عديدة قام بالبحث عن الحقيقة وعن الله» (خضري وآخرون، ١٣٩٤: ٢٣).

٣.٣ مرحلة طلب الذات (طلب الحقيقة)

في هذه المرحلة بطل الرواية يشرع بطلب الذات/ الحقيقة وهي ضالته الأساسية في الحياة وبسببها ترك كل شيء، فهناك طلب يفوق كل المقادير ألا وهو الاستجداء؛ استجداء الحقيقة الضائعة:

ثم انطلق بسيارته - وحده - إلى الطريق الصحراوي ... ثم غادرها إلى ظلمة شاملة. ظلمة غريبة كثيفة بلا ضوء إنساني واحد. ولا يذكر أنه رأى منظراً مثل هذا من قبل ... ورفع رأسه قبل أن تألف عيناه الظلام فرأى في القبة الهائلة آلاف النجوم عناقيد وأشكالاً

ووحداً، وهبّ الهواء جافاً ولطيفاً منعشاً موحداً بين أجزاء الكون... وأسند جسمه إلى السيارة ونظر نحو الأفق. وأطال وأمعن النظر. وثمة تغير جذب البصر. رَقَّ الظلام. وانبتت فيه شفافية. وتكوّن خط في بطن شديد ومضى ينضح بلون وضيء عجيب. كسر أو عبير. ثم تؤكد فانتشت دفقات من البهجة والضياء والنيسان. وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة... وليث يلهث ويتقلب في النشوة. ويتعلق بجنون الأفق. تنفس تنفساً عميقاً كأنما ليسترد شيئاً من قوته عقب شوط من الركض المذهل وشعر بديب آت من بعيد من أعماق نفسه (محفوظ، ٢٠٠٦: ١٠٤-١٠٥).

هذا النص هو الفقرة الأساسية لهذه الرواية يصف فيه محفوظ الظلمة القاتلة، ظلمة البشر وضياعه وحيرته، ثم وبراعة تامة يأتي بخيوط لنور المشرقة الكاشفة للحقيقة وذلك بطولوع النور من الظلمة، بطل الرواية «يسقط يده استجداء للحقيقة وتبدأ تلك الرحلة برفض ما يحيط به، ثم يبدأ في البحث عن مخرج من أزمته إلى عالم مغاير لممارساته السابقة، وتبدأ عملية البحث المتخبطة بالجنس أولاً ومروراً بالفن وانتهاءً بالتصوف، حيث يتلاشى عن الوجود الذاتي القائم ويفنى في عالم الوجود بحثاً عن المعنى في وحدة الوجود واشراقات الصوفية ونشوتها» (الشطي، ١٦٧٦: ١٦٣) وأول ما يبدو هنا هو أنّ شخصية البطل كثيراً ما تعتمد على القلب والذوق مثلها مثل الصوفي الذي يعتمد عليهما لا على المنطق والعقل، وذلك لكي يسمو بهذه الرؤية القلبية على الرؤية العقلية. فالشخصية تحطم أطار الواقع وقبوده، وتغيب بين الناس في سبحاتها، أو في عزلتها، أو في تخيلاتهما نحو الهدف البعيد. ومن هنا فإنه إذا كان صحيحاً أن (الشخصية) في العمل الروائي تمثل «إحدى الأدوات الاستراتيجية للنص» فإنه ربما يصبح صحيحاً قول أحد النقاد بأننا نجد في عالم نجيب محفوظ ذلك التداخل بين الواقعي والأسطوري والخيالي والرمزي (بدران، ١٩٩٧: ١٦) وهذا ما يبدو منعكساً على طابع شخصيات رئيسية في روايات نجيب محفوظ الفلسفية.

وفي الشحاذ يخرج عمر الحمزاوي عن مألوف الطبع، وعن الانشغالات الخارجية من عمل وحيوة اجتماعية، عازفاً عن الضجيج، لائذاً بالصحراء التي تساعد وتعين - بطبيعتها المنعزلة - على التفكير والتأمل؛ وكأنها «الخلوة الصوفية». وهذا العزوف أو الهروب لدى هذه الشخصية قد نراه - في جانب منه - حلاً سلبياً، أو نجاة للفرد بنفسه، إلا أن هذه

الشخصية لها مفهوم عند نجيب محفوظ يكاد يكون هو الإيجابية عينها؛ فمن خلال إبراز سلبيتها ينمو الشعور لدى القارئ بنقدها والنفور من سلبيتها، وهذه هي القيمة الإيجابية التي يسعى إليها محفوظ.

إن شخصيات نجيب محفوظ الرئيسية تكاد تتشابه في إطار عام واحد هو «البحث عن الحقيقة» فكرة «الحقيقة» تشغل نجيب محفوظ حتى منذ المرحلة التاريخية في أدبه الروائي: ففي (عبث الأقدار) يقول (خوفو) «الحقيقة اليوم تهزأ بطمأنيتي» وكأن هناك تعارضاً بين «الحقيقة» و«الطمأنينة»، فالحقيقة قلق. ولقد حلل الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابه نجيب محفوظ: الرؤية والأداة أبعاد فكرة «الحقيقة العليا» عند نجيب محفوظ: «يرى نجيب غايته المثلى متمثلة في محاولة اكتشاف ما يسميه بالحقيقة العليا، وينبع من هذا المنطلق حنينه الدائم إلى الصوفية باعتبارها نقيضاً للمادة من ناحية، وطريقاً إلى الحقيقة العليا من ناحية أخرى» (طه بدر، د.ت: ٧٥) هذه الرواية كثفت قضية «الجنون» التي ظهرت في اعتزال الحمزاوي عن الناس، فالجنون هو الذي يخرج الكائنات والأشياء عن طبيعتها الثابتة، أو منطقتها المؤلف. إنه إبداع (حقائق) جديدة للوجود. وكثيراً ما أراد المتصوفة أن يكون المتصوف «ذاهب العقل؛ لأن العقل عندهم يعجز كل العجز عن المعرفة» (نجيب المصري، ١٩٨٩: ٢٦٦).

٤.٣ مرحلة كشف الذات / الحقيقة (مرحلة الشهود)

هذه المرحلة هي المرحلة الرئسة والأخيرة لطالب الحقيقة عمر الحمزاوي في رواية الشحاذ من هذه المرحلة يتجاوز الظلمة إلى النور ومن المعروف أنّ «الظلمة» - في الرمز الصوفي - هي ظلمة المادة الطينية التي خلق منها الجسد الإنساني، وهذه الظلمة هي الحجاب الذي يحول دون رؤية القلب للجمال، أو للنور الإلهي المطلق. ومع انغماس الحمزاوي في تجربته مع (وردة) - راقصة الملهى الليلي - يهتف: «النشوة هي اليقين» (محموظ، ٢٠٠٦: ١٠٠).

ومع ذلك فإنه يكتشف أن هذه (النشوة) زائلة يطراً عليها النقص والتحول، فهي إذن ليست «الحقيقة». ويصل الأمر إلى الشك في كل طريق لا يوصل إلى الحقيقة، أو إلى ما يسميه الحمزاوي بـ«النشوة»:

«لا الشعر ولا الخمر ولا الحب. فأني نداء تليبي تلك النشوة المستعصية؟»
(المصدر نفسه: ١١٤).

غير أن هذه النشوة المستحيلة تأتي مرة واحدة، وهنا يقوم السرد الروائي بتصوير هذا المشهد مستعيناً بكل ما يحف بمشهد لحظة الوجد في التراث الصوفي. ومع ذلك فلم تسفر نشوة هذا التجلي إلا عن مزيد من اغتراب الحمزاوي وبعده عن الحياة. فظل يردد:
«متى تعود رحمة الفجر في الصحراء؟» (المصدر نفسه: ١١٦).

ويستثمر نجيب محفوظ فكرة (الخلوة) ودلالاتها على العزلة والانسحاب من دنيا البشر ليؤكد من خلالها دلالة اغتراب الحمزاوي وانسحابه من مسؤوليات الواقع:

واعتكف في حجرته طول الليل يقرأ ويتأمل حتى يجيء الفجر فيمضي إلى الشرفة وينظر إلى الأفق يتساءل: أين الرحمة أين؟ وهاهي ترانيم فارس والهند والعرب المليئة بالأسرار ولكن أين السعادة أين؟ (المصدر نفسه: ١٢٦).

فالحمزاوي يستمر في عزله كشأ، عن الحقيقة الضائعة، الحقيقة الإنسانية المنشودة وتتمظهر رحلة البحث عن الذات في رواية الشحاذ ب:

«التأمل + الحيرة +

الضياع + الانغماس في الدنيا +

التناسي + العزلة + الوحدة +

الانغماس في الذات +

النشوة»

هذه الرحلات المتعددة أوصلت بطل الرواية إلى نشوة الحقيقة، الحقيقة التي شحذاها الحمزاوي شحذاً من الواقع المؤلم الذي عاشه، فعنوان الرواية الشحاذ ذا دلالة رمزية على فعل بطل الرواية، فبطل الرواية من بداية الرواية إلى نهايتها كان شحذاً يستجدي ذاته الضائعة بين تقلب الأيام والناس وتقلب نفسه.

تبدو تحولات الشعور الإنساني بين الخواء والامتلاء والحماس والخمود والأمل والحياة، فالإنسان يخفي تحت هويته الواحدة الظاهرة وجوها كثيرة وعوالم متباينة. الشحاذ من هذه

الناحية رحلة في الكيان الإنساني تسير أغواره فتكشف مدى تعقد التركيب النفسي للإنسان المعاصر. إنّ أهمية هذه الرحلة، رحلة القارئ تتأكد من خلال ربط الرواية بين المعاناة النفسية والقلق الذهني من ناحية والتحول الاجتماعي من ناحية ثانية. هكذا وسعت رحلة القارئ رحاب الفكر والمجتمع والنفوس وأكدت السمة التي يعتبرها بعض النقاد ميزة عالم نجيب محفوظ الروائي، إنه عالم يثير جدلا لا يفضّ وتطرح مشكلات لا تحدّ. استوت رحلة القارئ في ضوء بحث فني عن الأدوات الروائية الأنسب خاضه مؤلف الرواية، وبحث فلسفي وجودي خاضه بطلها عمر الحمزاوي وهما بحثان عكسا كأبهي ما يكون تحولا جذريا في الرؤية والتعبير أو بعبارة أخرى جسدا رحلة نجيب محفوظ في أغوار ذاته وعالمه وثقافته الروائية والفلسفية.

نلاحظ في الرواية أنه يأتي إلى عمر الحمزاوي «عثمان خليل» ويخبره أنه قد تزوج من «بثينة» - ابنة الحمزاوي - . آتھا على وشك استقبال ابن منه، وعليه أن يعود لأن عثمان مطارد من الشرطة وحتما سيتم القبض عليه ويعود إلى السجن، لكن عمر الحمزاوي كان غارقا في عزلته الروحانية يبحث عن ذاته و حقيقته وأثناء مطاردة الشرطة لعثمان خليل يصاب عمر الحمزاوي برصاصة في رقوته، فتكون بمثابة الصدمة الكهربائية التي يفيق المريض بعدها. وكأنها أصابت غيبوته فشفي منها، وهي بمثابة العقاب الأخير الذي وقع عليه. فقد أفاق بعد أن وجد لنفسه طريقا جديدا، يرضى عنه ويرضى روح المناضل القديم في نفسه؛ إذ عليه أن يرضى ابن بثينة من عثمان، ذلك الإبن الذي هو امتداد لطريق عثمان. ولهذا فهو عندما يسمع صوتا يقول بعد القبض على عثمان:

«انتهى ... انتهى ... قبض عليه ... وانتهى كل شيء ... يهمس الحمزاوي في أعماقه ويقول: ليس لشيء نهاية» (المصدر نفسه: ١٣٠).

ففي نهاية المطاف يفتق عمر الحمزاوي من غيبوته إلى عالمه الإنساني وأنه وجد ذاته بعد كفاح مرير مع نفسه المتخاذلة، بعد حالة عرفانية، وصوفية وبعد زهد في الدنيا وما فيها وبعد عزلة كبيرة أخيرا وجد نفسه وذاته وحقيقته ورجع إلى أصله الإنساني الذي كان مفقودا، فانتهى ... انتهى ... يعني انتهى الألم؛ الألم الذي كان يؤديه انتهى البحث ووجد الحقيقة.

٤. النتائج

في نهاية المطاف توصلت إلى النتائج التالية:

- سيرت رواية الشحاذ آفاق البحث عن الذات وعن الحقيقة وانطلقت من منطلق المونولوج الداخلي حيث غاص بطلها عمر الحمزاوي في عزلة قاتلة، انعزل عن الأهل والدار والعمل بحثاً عن الذات؛
- وجد البطل الحمزاوي وأيضاً الكاتب نجيب محفوظ ذاته الذائعة بهذا الوجد الصوفي وبهذه الطريق الوعرة التي سلكها الحمزاوي، حيث نهل من ملذات الدنيا وأطلق لنفسه عنائها فنهمت ما نهمت من الملذات إلا أنه استوقفها وطلب الحقيقة؛
- حقيقة محفوظ في شحاذه تحرك مشاعر المتلقي للبحث عن حقيقته الضائعة؛
- رأيت في هذه الرواية تلمّص محفوظ عمر الحمزاوي، فكان ذلك البطل هو في الواقع نجيب محفوظ بهذه الرواية الفلسفية؛
- كما يعرف القارئ الكريم أنّ محفوظ درس الفلسفة الإسلامية وهذه الدراسة وخبيرته فيها وتجاربه العديدة من الأزمات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي نتجت في أيامه سببت بكتابة هذه الرواية التي أسماها الشحاذ متعمداً التسمية معاداةً للمتكسبين بالدين في أيامه، أما هذا الشحاذ في الواقع نفس الإنسان الذي يطلب الحقيقة أو بالأحرى يستجديها عن مصيره النهائي أي هي تأمل في الموت وما بعده، بمعنا أنها متجاوزة القضايا السياسية والاجتماعية ومركزة على بحث الإنسان عن ذاته وحقيقته.

المصادر

القرآن الكريم.

بدران، نادية (١٩٩٧م). نجيب محفوظ وصيغ روائية جديدة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

بدوي، عبد الرحمان (١٩٨٠م). التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، الكويت: دار العلم وكالة المطبوعات.

حيوبي، أنيس (د.ت). «الذهنية وتجلياتها في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ»، مجلة دراسة أدبية، دون عدد.

٩٢ آفاق الحضارة الإسلامية، السنة الحادية والعشرون، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٩ هـ. ق.

- خضري، علي، رسول بلاوي، وزهره بھروزی (١٣٩٤ هـ.ش). «شخصیت پردازی در رمان الشحاذ نجيب محفوظ»، مجلة لسان مبین، س ٧، ش ٢٢.
- سلامة، محمد علي (٢٠٠٩ م). نجيب محفوظ الشخصية الدينية، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- الشطبي، سليمان (١٩٧٦ م). الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، الكويت: المطبعة العصرية.
- شفيعي، فاطمه، حسن بلخاري، ومحمود حيدري (١٤٣٤ ق). «الخيال الفني في فلسفة السهروردي الإشراقية»، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ١٥، العدد ٢.
- طله بدر، عبدالمحسن (د.ت). نجيب محفوظ الرؤية والأداة، القاهرة: دارالمعارف.
- عبدالله، محمد حسين (٢٠٠١ م). الإسلامية والروحانية في أدب نجيب محفوظ، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- كون، إيغور (١٩٩٢ م). البحث عن الذات دراسة في الشخصية ووعي الذات، الترجمة: غسان نصر، دمشق: دار معد للنشر والتوزيع.
- مجيب المصري، حسين (١٩٨٩ م). المرأة في الشعر العربي والفارسي والتركي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- محمد سعيد، فاطمة الزهراء (١٩٨١ م). الرمزية في أدب نجيب محفوظ، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- هال، جيمز (١٣٨٣ ش). فرهنگ نگارهای نمادها در هنر شرق و غرب، ترجمه: رقيه بهزادي، تهران: فرهنگ معاصر.
- هيدغر، ليفي ستراوس، و ميشيل فوكو (١٩٩٢ م). موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ترجمة وتحقيق: عبد الرزاق الداوي، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- وولين، ريتشارد (٢٠٠٦ م). مقولات النقد الثقافي مدرسة فرانكفورت، الوجودية، ما بعد البنيوية، الترجمة: محمد عناني، القاهرة: المركز القومي للترجمة.